

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

منهج التائبين - الحلقة : 30 - ثمرات التوبة وقصة لأحد العارفين بالله التائبين.

26-12-2001

مقدمة :

المذيع :

بسم الله ، والحمد لله ، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .
أيها الأخوة المستمعون ؛ السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، نحبيكم في مستهل هذا اللقاء من برنامج :
"منهج التائبين" ، أرحب بفضيلة الشيخ الدكتور محمد راتب النابلسي أحد أبرز علماء دمشق ودعاتها ،
أهلاً ومرحباً بكم ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

الدكتور راتب :

وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .

المذيع :

في ختام هذه السلسلة من الحوارات حول التوبة والتائبين ، هل لنا من قصة لأحد التائبين العارفين بالله،
ومن ثم نتحدث عن ثمرات التوبة ، وعن فضل الجهر بالتوبة ، والإنابة إلى الله تبارك وتعالى .

قصة أحد التابعين الذي أصبح من كبار العارفين :

الدكتور راتب :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد
الأمين .

الحقيقة أنك إذا دخلت إلى أحد المساجد ، ورأيت المسجد ممتلئاً بالمصلين المنيبين ، أنا أقول لك : إن
تسعين بالمئة من هؤلاء ساقهم الله إلى بابه عن طريق تأديب أو مصيبة ، لأن هذه المصائب سماها الله
نعماً باطنة ، قال تعالى :

﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾

[سورة لقمان: 20]

ولولا أن الله يريد أن يتوب علينا ، ولولا أنه قال :

﴿ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾

[سورة البقرة : 222]

ولولا أنه يفرح بتوبتنا لتفقت للإنسان ، ولشقي في الدنيا والآخرة ، حسب ما رغبت أن أروي قصة أحد التابعين الذين أصبحوا من كبار العارفين ، من هؤلاء مالك بن دينار ، سُئِلَ مرة عن سبب توبته فقال : كنت شرطياً ، ومنهمكاً بشرب الخمر ، ثم إنني اشتريت جارية نفيسة وقعت مني أحسن موقع ، فولدت لي بنتاً فشغفت بها ، فلما دببت على الأرض ازدادت في قلبي حباً ، وألفتني وألفتها ، قال : فكنت إذا وضعت الشراب بين يدي جاءت إليّ ، وجادلنتني عليه وهرقته على ثوبي ، فلما تمّ لها سنتان ماتت فأكدمني موتها ، وحزنت عليها حزناً كبيراً ، فلما كانت ليلة النصف من شعبان ، وكانت ليلة الجمعة ، بت ثملاً من الخمر ، ولم أصلّ فيها العشاء ، فرأيت فيما يرى النائم كأن القيامة قد قامت ، قد نفخ في الصور ، وبعثت القبور ، وحشرت الخلائق ، وأنا معهم ، فسمعت حساً من ورائي ، فالتفت فإذا بثعبان عظيم أعظم ما يكون ، أزرق اللون ، قد فتح فاه مسرعاً نحوي ، فمررت بين يديه هارباً فرعاً مهولاً ، فمررت بطريقي بشيخ نقي الثوب ، طيب الرائحة ، فسلمت عليه ، فرد السلام ، فقلت : أيها الشيخ ، أجرني من هذا الثعبان أجاارك الله ، فبكى الشيخ ، وقال لي : أنا ضعيف ، وهذا أقوى مني ، وما أقدر عليه ، ولكن أسرع وادع الله عز وجل فلعل الله ينجيك منه ، فوليت هارباً على وجهي ، فصعدت على شرف من شرف القيامة ، فأشرفت على طبقات النيران ، فنظرت إلى هولها ، وكدت أهوي فيها من فرعي من هذا الثعبان العظيم ، فصاح بي صائح : ارجع ، فلست من أهلها فاطمأنتت إلى قوله ، فرجعت ، ورجع الثعبان يتبعني ، فقال الشيخ : إنني ضعيف ، ولكن سر إلى هذا الجبل ، فإن فيه ودائع المسلمين ، فإن كان لك فيه وديعة فسوف تنصرك ، قال : فنظرت إلى جبل مستدير من فضة ، وفيه كوى مخزومة وستور معلقة ، على كل كوة وخوذة مصراعان من الذهب الأحمر ، مفصلة بالياقوت ، على كل مصراع ستر من الحرير ، فلما نظرت إلى الجبل ولأيت منه هارباً ، والثعبان من ورائي ، حتى إذا قربت منه صاح بعض الملائكة: ارفعوا الستور ، وافتحوا المصاريع ، وأشرفوا ، فلعل لهذا البائس فيكم وديعة تجيره من عدوه ، فإذا الستور قد رفعت ، والمصاريع قد فتحت ، فظهر أطفال وجوههم كالأقمار ، وقرب الثعبان مني فتحيرت في أمري ، فصاح بعض الأطفال : ويحكم أشرفوا كلكم فقد قرب منه عدوه ، فأشرفوا فجاء فوج بعد فوج ، فإذا أنا بابنتي التي قد ماتت أشرفت عليّ معهم ، فلما رأنتني بكت ، وقالت : أبي والله ، ثم وثبت في كفة من نور كرمية السهم حتى مثلت بين يدي ، فمدت يدها الشمال إلى يدي اليمنى ، فتعلقت بها ، ومدت يدها اليمنى إلى الثعبان فولى هارباً ، ثم أجلسنتني، وقعدت في حجري ، وضربت بيدها اليمنى إلى لحيتي ، وقالت : يا أبت :

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ﴾

[سورة الحديد: 16]

فبكيت ، وقلت : يا بنية ، وأنتم تعرفون القرآن ! فقالت : يا أبت نحن أعرف به منكم، قلت : فأخبريني عن الثعبان الذي أراد أن يهلكني ، قالت : ذلك هو عمك السوء ، قويته ، فأراد أن يغرقك في نار جهنم، قلت : فأخبريني عن الشيخ الذي مررت به في طريقي ؟ قالت : يا أبت ذاك عمك الصالح ، أضعفته حتى لم يكن له طاقة بعملك السوء ، قلت : يا بنية ، وما تصنعون في هذا الجبل ؟ قالت : نحن أطفال المسلمين قد أسكنا فيه إلى أن تقوم الساعة ، ننتظركم تقدمون علينا ، فنشفع لكم ، قال مالك : فانتبهت فزعاً ، وأصبحت ، وقد فارقت المسكر، وكسرت الأنية ، وتبت إلى الله عز وجل ، وهذا كان سبب توبتي ، أي إن ابنته الصغيرة رمز لعمله الصالح ، وإن الشيخ الضعيف رمز لعمله الصالح الذي لم يقو على مدافعة عمله السيئ ، وأن هذا الثعبان العظيم الذي سيهلكه هو عمله السوء . وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :

((يا فُيَيْس ، إن لك قريناً تدفن معه وهو حي ، ويدفن معك وأنت ميت ، فإن كان كريماً أكرمك ، وإن كان لئيماً أسلمك ، قال : ما هو يا رسول الله ؟ قال : هو عمك))

[ورد في الأثر]

لذلك الموت يأتي فجأة ، والقبر صندوق العمل .

المذيع :

كان موت ابنته بمثابة نعمة باطنة .

الدكتور راتب :

أنعمها الله عليه ، وشفعت له ، وذكرته بخطئه ، وانحرافه الشديد .

ديننا أساسه النصوص الصحيحة لكن للمنامات معنى بليغاً :

على كلّ نحن لا نبني ديننا على المنامات ، ولكن نستأنس بها أحياناً ، نحن ديننا أساسه النصوص الصحيحة ، والمنهج القويم ، لكن مثل هذا المنام فيه معنى بليغ ، وفيه تحذير من الله ، وهذا يسوقنا إلى كلمة عن الأحلام التي يراها الإنسان .

إذا كان المؤمن مستقيماً على أمر الله ، ورأى مناماً مخيفاً فهو من الشيطان ، لا يعبا به ، وإن كان مستقيماً على أمر الله ، ورأى مناماً مريحاً فهو بشارة من الله ، أما إذا كان منحرفاً في سلوكه ، ورأى مناماً مريحاً فهو من الشيطان ، أما إذا رأى مناماً مخيفاً ، وهذه حالة الإمام مالك بن دينار فهذا المنام تحذير من الله .

يروى أن الإمام مالك إمام دار الهجرة رأى في المنام ملك الموت ، فسأله : كم بقي لي من عمري ؟ فأشار له بأصابعه الخمس ، فلما استيقظ الإمام مالك قلق قلقاً شديداً ، لا يدري أبقى خمس سنوات أم خمسة أشهر أم خمسة أسابيع أم خمسة أيام أم خمس ساعات أم خمس دقائق أم خمس ثوان ؟ فلما ذهب إلى بعض الأئمة ، الإمام ابن سيرين فيما يروى ، وسأله عن هذا المنام قال له : لا يا إمام ، يقول لك ملك الموت : إن هذا السؤال من خمسة أشياء لا يعلمها إلا الله ، إن هذا السؤال من الغيبات التي لا يعلمها إلا الله ، على كل الحقيقة أن الإنسان إذا ذكر سبب توبته يعطي تشجيعاً للمسلمين .

المذيع :

هنا فضل الجهر بالتوبة ، أي إنه عندما يتوب خاصة إذا كان من علياء القوم يعطي مثلاً للعامة من القوم على أن يقلدوه ، ويمتثلوا له .

الإنسان مغطى بستر الله عز وجل فعليه ألا يفصح نفسه :

الدكتور راتب :

ولكن هناك تحفظ ، وهو أن الله سترني ، ولا ينبغي أن أفصح نفسي ، وليس في إسلامنا شيء اسمه الاعتراف والبوح ، فالإنسان مغطى بستر الله عز وجل ، إذا اختار من ذنوبه الذنب الذي لا يسقطه من عين الناس ، وحدثهم به ، وكيف تاب الله عليه فلا مانع ، ولكنه ليس مكلفاً أن يحدث المذنب عن ذنوبه الكثيرة ، وعن سقوطه في حماة الرذيلة كي ينتفع الناس بهذا الذنب ، الإنسان لا يغفر ، فإذا بحت له ببعض الذنوب كلما نظر إليك تذكرها ، لكن نحن قد نذكر أنه كان تائباً وشارداً ، وهكذا تاب بسبب نصيحة مثلاً ، أو عمل صالح ، أو موعظة بليغة ، أو مرض ألمّ به ، أنا أتمنى على التائبين من عليّة القوم إن حدثونا عن توبتهم أن يتحدثوا عن مناسبة توبتهم لا عن ذنوبهم ، إذا قال : كنت تائباً ، أو شارداً ، أو مقترفاً للمعاصي كفى ، أما أن يفصل تفصيلات ما أمره الله بها في شؤون معاصيه وذنوبه ، ثم يجمل كيف تاب ، فلا ، أنا أريد بالعكس ، أريد أن يفصل في آلية التوبة .

لكل مذنب مفتاح :

حدثني أخ قال : والله لي عمل من أشد الأعمال دناءة ، وسمى هذا العمل ، لكنني تبت عند سماع شريط سمعته خمسين مرة ، وفيه قصة مؤثرة عن إنسان أطلق بصره في الحرام ، وملاً عينيه من الحرام ، فأصابه الله بمرض ارتخاء الجفون ، فهو لا يرى إلا إذا أمسك جفنيه بيديه ورفعهما ، ويبدو أن هذا الإنسان الذي أخبرني عن توبته له عمل مثل ذلك ، فلما سمع هذه القصة تأثر بها ، وكان كل مذنب له مفتاح ، هذا مفتاحه موعظة ، وهذا مصيبة ، وهذا مرض ، وهذا مرض ابنته .

أعرف صديقاً متعلقاً بابنته تعلقاً لا حدود له ، وكان شاردًا وتائهاً عن منهج الله ، فلما مرضت مرضاً عضالاً ، ولم يبق طبيب إلا فحصها ، اضطر إلى أن يبيع بيته ، ويذهب إلى بلد بعيد ، ولم تشف من مرضها ، ثم خطرت له خاطرة هو زوجته : لعلهما إذا تابا إلى الله ، ورجعا إليه يشفي الله لهما هذه الفتاة التي تعلقا بها تعلقاً غير طبيعي .

الحقيقة أن هذا المرض بدأ يتراجع ، لزم الصلاة ، ودروس العلم ، وتحجبت زوجته، وسلك طريق الإيمان ، على أمل أن يشفيها الله بسبب توبتهما ، وهذا الذي كان ، والله بعد عشر سنوات زارني ، وقدم لي دعوة لحضور عقد قران ، فلبيت الدعوة ، وألقيت كلمة في هذا العقد ، وأنا خارج من مكان الاحتفال ، تبعني مودعاً ، فخطر في بالي خاطرة ، لعل هذه الفتاة التي تم عقدها الليلة لعلها هي التي مرضت ، فقلت له بصيغة مألوفة : هي هي ! قال لي : هي هي ! قلت : سبحان الله ! هذا المرض العضال جاء كالضيف ، ألم بهذه الفتاة الرائعة ، وحمل أبويها على التوبة ، ثم انسحب مولياً ، وكأنه لم يأت ، وهذه من النعم الباطنة .

الله عز وجل ذكرنا بقوم عندهم بساتين وإنتاج زراعي كبير :

﴿أَصْحَابِ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ * وَلَا يَسْتَأْذِنُونَ﴾

[سورة القلم : 17-18]

أرادوا أن يمنعوا حق الفقير ، وأن يستأثروا بهذا المال ، قال :

﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾

[سورة القلم : 19-20]

جاءتها موجة صقيع ، وأحياناً تأتي موجة لثلاثين ثانية تتلف محاصيل بمئات الألوف وبالملايين ، أحياناً موجة الصقيع .

﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾

[سورة القلم : 19-20]

كأنها مقطوعة ، كأنها قد جنيت ، في الصباح :

﴿فَتَنَادُوا مُصْبِحِينَ * أَنْ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنْتُمْ صَارِمِينَ﴾

[سورة القلم : 21-22]

﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ﴾

[سورة القلم : 26]

ليست هذه بساتيننا ، فلما تأكدوا أنها هي قالوا :

﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتْلَاوَمُونَ﴾

﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾

لو أنكم سبحتم ربكم ، وعرفتموه لما بخلتم بحق الفقير ، ولما أتلف الله لكم محاصيلكم ، وقد ورد في الحديث الشريف :

((ما تلف مال في بر أو بحر إلا بحبس الزكاة))

[أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط عن أبي هريرة]

﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ * قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتْلَاوَمُونَ﴾

[سورة القلم : 28-30]

الله عز وجل غني عن تعذيبنا :

أخ زياد ، يوجد كلمة رائعة قال تعالى :

﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ﴾

أي إن كل عذاب أسوقه لعبادي من أول الخليقة إلى نهايتها هذه أسبابه ، وهذه أهدافه ، الله عز وجل غني عن تعذيبنا ، وكان من الممكن أن ننعم بالنعيم ، ونحن غارقون في المعاصي ، لكن شاءت حكمة الله أن تكون الدنيا دار ابتلاء ، وأن نؤدب من خلال المصائب التي تأتينا ، لذلك عن أبي أمامة قال :

((اسْتَضْحَكْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا فَقِيلَ لَهُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَا أَضْحَكَكَ ؟ قَالَ : قَوْمٌ

يُسَافِرُونَ إِلَى الْجَنَّةِ مُقَرَّنِينَ فِي السَّلَاسِلِ))

[أحمد عن أبي أمامة]

ما السلاسل ؟ هي الامتحان ، هناك فكرة دقيقة : لو أنك مدير مؤسسة ، وأردت أن تعين موظفاً ، من لوازم التعيين أنك تمتحنه لستة أشهر ، فإن كان جيداً أبقيته ، وإلا صرفته ، هذا الموظف من أجل أن تمتحنه سوف تسجل عليه كل حركة وسكنة ، فإذا اجتمعت سيئاته ، وطغت على حسناته استغثت عنه ، هذا المنطق السليم ، ولكن لو أن ابنك هو الموظف ماذا تفعل ؟ ليس الموضوع أن تسجل عليه السيئات ، بل أن تصلحه ، فعند أول خطيئة تأتي به ، وتؤدبه ، وتنبهه ، وهكذا ربنا جلّ جلاله وهو رب العالمين ، كان من الممكن أن ينزل الله آياته وقرآنه على الناس ، ويبعث إليهم بالرسول ، وانتهى الأمر ، وليفعلوا ما يشاؤون ، لكن الله فضلاً عن أنه خلق لهم الكون معروفاً به ، وأرسل لهم الرسل والأنبياء ثم الدعاة الصادقين ، فضلاً عن الكتب التي أنزلت ، هناك تأديب يومي ، لذلك ما من عثرة ، ولا اختلاج عرق ، ولا خدش عود إلا بما قدمت أيديكم ، ويعفو الله أكثر .

فأنا حينما أرى أن الله سبحانه وتعالى يسوق لعباده الشدائد من أجل أن يقفوا على بابه ، ويصلوا إليه ، فالشدائد كل شدة وراءها شدة إلى الله ، وكل محنة وراءها منحة من الله ، فحينما نفهم المصائب على هذا الفهم نكون قد فقهنا ديننا .

السيارة لماذا صنعت ؟ من أجل هدف واحد أن تسير ، لماذا فيها مكابح والمكابح يتناقض مع هدف صنعها ؟ المكبح ضمان لسلامتها ، والمصائب كمكابح السيارة ، فلولاها لهلكنا، فتأتي المصائب تردع الناس المنحرفين عن غيهم ، وضلالهم ، وعدوانهم ، وظلمهم ، فكأن الله سبحانه وتعالى وهو رب كريم رحيم يسوق لنا من الشدائد ما يحملنا به على التوبة ، فإذا تبنا تاب الله علينا .

خاتمة وتوديع :

المذيع :

نسأل الله عز وجل موجبات رحمته ، وعزائم مغفرته ، والغنيمة من كل بر ، والسلامة من كل إثم ، إنه سميع مجيب .

في ختام هذه السلسلة من الحوارات فضيلة الشيخ الدكتور محمد راتب النابلسي جزاكم الله عنا كل خير، ونسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعل ذلك في ميزان حسناتكم ، أشكركم على هذا الجهد والوقت الذي فرغتموه كي ننجز هذه الحوارات ، وختاماً أشكر الأخوة المستمعين لحسن متابعتهم ، نسأل الله عز وجل أن يهيئ لنا لقاءات أخرى مستقبلاً بإذن الله تعالى ، وذلك في مجال الدعوة في سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، حتى الملتقى فضيلة الشيخ أستودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .